## المقالة السابعة والثلاثون[1]
# في مدح ذوي أنواع الفضيلة وذم ذوي أنواع الرذيلة

**أولاً**:
أطوب حياتكم أيها المحبون للمسيح لأنَها حسنة الدالة والويل لسيرتي لأنَها عاطلة غير نافعة ، أغبطكم يا خدام المسيح المخلصين لأنكم بسيرتكم المستقيمة جعلتم ذاتكم أحباء للـه والملائكة ، من ينوح عليَّ لأنني أغظته بأعمالي الباطلة ، ومغبوطون أنتم الذين قد ورثتم الفردوس بسيرتكم النقية وبمحبتكم التي لا يقدر تقديرها .

أنني متعجب منكم كيف ما عجزتم عن مسير مسافة هذا الطريق الذي يوافق أنفسكم ، وما أعجب من هذا إنكم جئتم إلي واحد حقير ومسجون بالخطايا طالبين منه كلام منفعة ، يا للعجب كيف جئتم أنتم الشباعى إلى الذائب بالجوع ، كيف أقبلتم أنتم الحاوين الندى الروحاني إلي الناضب ، كيف أنتم المالكين حلاوة الفضائل جئتم إلى المتمرر بالخطايا .

كيف جاء الأغنياء إلي الفقير ، كيف أقبل الحكماء إلي الأمي ، كيف جاء الأطهار إلي الدنس ، كيف جاء الأصحاء إلي المريض بضميره ، كيف ورد المرضيون للـه إلي من يسخطه ، كيف جاء الأحرار إلي الأسير ، كيف أقبل المهتمون بالخلاص إلي المتكاسل .

لأنكم أنتم المملوؤن بالفضائل وأنا الممسك بجهلي ، أنتم الذين حويتم الحمية فأرضيتم اللـه وأنا بخطيئي وإهمالي أدان ، أنتم بالأعمال الحسنة وبالطهارة الشريفة صرتم طيباً للمسيح ، وأنا برخاوتي وونيتي حصلت بكليتي نتانة مستكرهة .

إن هذا بالحقيقة عجب ! إنكم محتون في ذاتكم جسامة هذه المنفعة وقد أقبلتم إليَّ أنا الذي ما نفعت نفسي فبواجب فعلتم ذلك أيها الوامقون للمسيح مريدين أن تعضدوا رخاوتي وتجعلوا نفسي الوانية مهتمة حريصة وتؤيدون صغر نفسي لأنكم أنتم كاملون ولا تنقصون شيئاً ، فإذ قد ألتمستم بتواضع أن تقتبسوا مني أنا الناقص كلام منفعة وأمرتموني بِهذا مريدين أن أوبخ سيرتي وأكشفها وأتكلم من أجل ثمر المنفعة وأنني فارغ لأنني إن بدأت أن أشير عليكم فإنما أدين نفسي ، وإن ابتدأت أن أوبخ آخرين فإنما أثلب ذاتي ، لأنه واجب أن يقال لي ما قال المخلص : أيها الطبيب اشفِ ذاتك . لكنه قال: كل ما يقولون لكم أن تعملوا فافعلوا ونظير أعمالهم لا تعملوا .

فلذلك إن كنت دنساً لكنني عالم أن أبدي رأياً مستقيماً فمن هنا إذا رمقت هذه السيرة الملائكية أغبط كل من أكثر منها لأنه من ذا لا يغبط السائرين سيرة مستقيمة ومرضية والمتصرف بالطهارة من أجل الخيرات المعدة التي لا تسبر ولا تحصى ، ومن لا ينوح علي السائرين سيرة وانية الذي من أجل أمر حقير يحصل خارج الملك الذي في السموات ، ومن أجل لذة وقتية يخرج من ذلك الخدر .

**ثانياً: في التقوى**

مغبوط المتقي الرب مغبوط ذلك الإنسان الحاوي في نفسه مخافة اللـه فإنه يطوب من الروح القدس جهاراً لأنه زعم مغبوط الإنسان المتقي الرب ، بالحقيقة أن المتقي الرب يكون خارج كل حيلة العدو وكافة اغتياله ، الحاوي مخافة اللـه يغلب بسهولة كافة مكائد العدو الرديئة صناعته لأنه لا يستأسر بشئ ومن أجل التقوى لا يقتبل لذة الجسد .

---

[1] كتاب: مقالات مار إفرآم ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع
وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس في برية الأنبا مقاريوس
*طبع سنة ١٨٩٢*

المتقي لا يتنزه هنا وهناك لأنه ينتظر سيده لئلا يجئ بغتة يجده وانياً فيقسمه شطرين ، الحاوي تقوى اللـه لا يهمل اهتمامه لأنه يتيقظ دائماً ، المتقي الرب لا يعطي لذاته نوماً بلا مقدار لأنه يسهر منتظراً ورود ربه ، الخائف من اللـه لا يبطل لئلا يغيظ سيده ، الخائف لا يضجع لأنه كل وقت يهتم بقنيته الروحية لئلا يذم ، الخائف يختبر كل حين الأفعال المرضية للـه ويستعد بِها حتى إذا جاء ربه يمدحه بأنواع كثيرة لأن تقوى اللـه تصير سبباً لخيرات جزيلة للذين يقتنونَها .

**ثالثاً: في عدم التقوى**

فأما من ليست فيه مخافة اللـه فهذا يكون سريع الانصياد بمكائد العدو المحال ، من ليست فيه مخافة اللـه يتنزه في أفعاله ، ينام بلا هم ، يضجع في أعماله ، يصير محزناً للذات ، كل شئ مطرب يقبله ويستلذه لأنه لا ينتظر ورود الرب فيتباهى باللذات ، يسر بالراحات ، يهرب من الشقاء ، يرفض التواضع ، يصافح الكبرياء ، سيجيء ربه فيما بعد ويجده فيما لا يرضيه فيشطره شطرين ويرسله إلي الظلمة المؤبدة فمن لا يعطي الويل لمن هو هكذا .

**رابعاً: في المحبة**

مغبوط ذلك الإنسان الحاوي المحبة للـه ، فإنه حاوي اللـه في ذاتهِ لأن اللـه محبه ومن يثبت في المحبة يثبت في اللـه ، ومن له محبه يغلب كل شئ باللـه ، لأن المحبة تطرح المخافة خارجاً ، من حوى المحبة لا يرفض أحداً قط لا صغيراً ولا كبيراً ، لا شريفاً ولا وضيعاً ، لا فقيراً ولا موسراً ، بل يصير موطئاً تحت الكل ، يحتمل كافة العوارض ، يصبر علي سائر النوائب ، من له محبة لا يترفع علي أحد ، لا يتشامخ ولا يغتاب أحداً ، بل ويعرض عن الثلابين .

من له محبة لا يسلك بغش ولا يعرقل أخاه ، من حوى المحبة لا يغار حسداً ، ولا يحسد ولا ينافس، ولا يفرح بسقطة آخرين ، ولا يشجب الخاطئ بل يحزن له ويعضده ، لا يعرض عن أخيه في شدته بل يساعده ويموت معه ، من فيه المحبة يعمل مشيئة اللـه وهو تلميذ له محق لأن سيدنا الصالح نفسه قال : بِهذا يعلم الكل أنكم تلاميذي إن أحببتم بعضكم بعضاً.

من فيه محبة لا يصنع لنفسه شيئاً ولا يقول أن له شئ يملكه خصوصاً لو كان سائر ما له مشاع للكل ، من له محبة لا يحتسب أحداً غريباً بل يصنع الكل أهله وانسباءه ، من له محبة لا يغتاظ ولا يتشامخ ولا يتحرق غيظاً ولا يسر بالظلم ، ولا يلبث في الكذب ، لا يحتسب له عدواً إلا المحال وحده، من له محبة يصبر علي سائر المحن يتعطف يتمهل . مغبوط إذاً المقتني المحبة فإن المسافر بِها إلي اللـه يعرف وليه ويقبله في حضنه ، ويغتذي نظير الملائكة ، ويتملك مع المسيح ، بالمحبة ورد الإله الكلمة إلي الأرض وفتح لنا بِها الفردوس وأورى الكل الارتقاء إلي السماء كنا أعداء اللـه فصالحنا بِها ، فبواجب قلنا إن المحبة هي اللـه ومن يثبت في المحبة يثبت في اللـه .

**خامساً: في من ليس له محبة**

شقي وردئ الحظ المبتعد من المحبة فإنه يعبر أيامه كتخيل المنام ، من لا ينوح علي ذالك الإنسان المبتعد من اللـه الفاقد النور والمتصرف في الظلمة لأني أقول لكم يا أخوتي إن من ليست له محبة اللـه فهو عدو للـه ، لأنه صادق القائل : من يبغض أخاه فهو قاتل الإنسان وفي الظلمة يسلك ، ويصاد بكل خطيئة .

من ليست له محبة يغضب بحدة ، يغتاظ بسرعة ، ويتوقد من الغضب سريعاً ، من ليست فيه محبة يسر بظلم آخرين لا يتألم مع الخاطئ ، ولا يناول الطريح يده ، ولا يعظ من غلط ، ولا يعضد المتزعزع ، من ليست له محبة فهو أعمى الذهن صديق المحال، ومخترع كل شر ، مستنبط الخصومات، معاشر الثلابين ، مشاور الشتامين ، مؤازر الحاسدين ، فاعل الكبرياء ، إناء العظمة ، وجملة تغني عن التفصيل ، من لا يقتني المحبة فهو آلة المحال المضاد ويضل في كل طريق ولا يعلم أنه في الظلمة يسلك .

**سادساً: في طول الأناة**

مغبوط بالحقيقة ذلك الإنسان المقتني طول الروح فإن مثل هذا يمدحه الكتاب الإلهي قائلاً : الإنسان الطويل الأناة جزيل الحظ في العقل ، هو في السرور كل حين في الفرح في الابتهاج لأنه قد أتكل علي الرب وأرتجاه . الطويل الأناة هو خارج الغضب لأنه يصبر علي سائر النوائب ، الطويل الأناة لا يميل إلي السخط سريعاً ولا ينقلب إلي الشتيمة ولا يتحرك بسرعة إلي الأقوال الفارغة .

إذا ظُلِم لا يحزن ، لا يقاوم الذين يقاومونه ، متيقظاً في كل أمر ، وليس سريع الوقوع بالخداع ، ولا جانحاً بسهولة إلي الخصومة ، يفرح بالأحزان ، يستوطن في كل عمل صالح، يود من يحسده ، إذا أُمر لا يجاوب ولا يقطب، يشفي نفسه بطول أناتهِ .

**سابعاً: في من ليس له طول أناة**

فأما من ليس له طول روح فمثل هذا هو فارغ مصفر من الصبر لأن من ليس له طول الأناة ينعكس بسهولة وهو معد للخصومة ، إذا شُتِمَ شَتَمَ ، إذا ظُلِمِ ينتقم ، نجيب في الخصومة ، أفعاله وأقواله مضطربة كالورقة يهتز مع الرياح ، لا يثبت في كلامه ، يطفر بحدة من هذا إلي هذا ، من ليس له طول أناة فذاك خالٍ من الثبات لأنه بسرعة يتغير ، لا يقتني دموعاً ، يعاشر الخبيث ، يكمن من اللائم يؤازر الظالم ، لا يحتمل شراً مستعد لإشهار الكلام ، فمن يكون أشقى منه .

**ثامناً: في الصبر**

مغبوط يا أخوتي من أقتنى الصبر لأن الصبر فيه الرجاء والرجاء لا يخزى فمغبوط بالحقيقة ومثلث السعادة من له صبر لأن من يصبر إلي النهاية يخلص ، فماذا يكون أجل من هذا الوعد ، إن الرب منعم على الصابرين ، فإلى متى يا أخوتي تميزون فضله أتراكم تعرفونه ، أم نحتاج إلي توسيع الكلام عنه لصيانتكم .

إن الصبر ليس هو نوعاً واحداً بل فيه فضائل كثيرة ، لأن الصبور يلامس كل فضيلة ويسر بالأحزان ، ويحسن في الشدائد ، يستبشر بالمحن ، معد للطاعة ، بَهي في طول الأناة ، كامل في المحبة ، يبارك في الشتائم ، يسالم في الخصومات ، شجاع في السكوت ، لا يعجز في الترتيل ، مستعد في الأصوام، صور في الصلوات ، غير معاب في الأعمال ، مستقيم في الجواب، حسن الإقناع في التوسل ، مهتم بالسيرة الحميدة ، مسرور بالخدم ، فرح بسيرته ، صالح في مجمع الأخوة، مستلذ في المشورات ، متهلل القلب في الأسهار ، حريص في الاهتمام بالغرباء ، معتنى بالمرضى ، يحاضر أولاً مع المتغلبين بالأشغال ، متيقظ في أن يتفهم ، ومستنهض في كل أمر ، المقتني الصبر قد أقتنى الرجاء ، تزين بكل عمل صالح ، ولذلك يهتف مثل هذا بحسن دالة إلي الرب قائلاً : صبرت إلي الرب صبراً فأصغى إليَّ .

**تاسعاً: في من لا صبر له**

شقي ومنكود الحظ من لم يقتني الصبر لأن مثل هذا يتوعده بالويل الكتاب الإلهي قائلاً: الويل للذين قد أضاعوا الصبر. حقاً بالحقيقة الويل لمن لا صبر له ، من لا صبر له يتحرك كورقة تحركها الرياح ، لا يحتمل شيئاً صغير النفس في الأحزان ، مثل هذا هو سريع الوقوع في الخصومات ، متذمر في الصبر ، مجاوب في الطاعة ، مضجع في الصلوات، منحل القوة في الأسهار ، مقطب في الأصوام ، متواني في الحمية، عاجز في الرسائل ، رديء الفعل في الأعمال لا يغلب في الخبث ، شجاع في حرب الكلام ، ضعيف القوة في السكوت ، يقاوم النجباء ، ويناضل الناجحين حاسداً ، من لا صبر له يتكبد خسارات كثيرة ، لا يمكن مثل هذا أن يمس فضيلة لأننا في الصبر نحاضر في الجهاد المنصوب كما زعم الرسول ، فمن لا صبر هو غريب من رجاء الصبر ، فلذلك أتضرع إلى جماعة الذين لا صبر لهم مثلي أن يقتنوا الصبر ليخلصوا .

**عاشراً: في عدم السخط**

الطوبى لذلك الإنسان الذي لا يغتاظ ولا يقبل غضباً ، هو في السلامة كل حين من طرد عنه الروح الغضبي والسخطي صار خارج الحرب والاضطراب ، هادئاً بالروح كل حين مسروراً بالوجه ، من

لا يغضب سريعاً فلا يتحرك من قول فارغ ، هو فاعل العدل والصدق يمسك المخاصمين بسهولة ، ويحتمل المؤلمين بلسانِهم بلا مشقة ، لا يفرح بالخصومة ، ولا يعمل ظلماً لأنه يظهر محباً إلي الكل غير سخوط ، لا يسر بحرب الكلام ، لا يصنع جوراً ، لا تدهمه الأمراض لأنه صحيح المزاج ، دائماً يسر بالمسالمة ويستوطن في طول الأناة ، من لا يقبل سريعاً روح الاحتداد المرة لا يغيظ الروح القدس ، ويقتدر أن يكون وديعاً ويمكنه أن يكون له محبة وصبر وتواضع ، العادم السخط قد تزين بكل عمل صالح ، ويحبه المسيح ، فمثلث السعادة بالحقيقة من طرد عنه روح السخط والغضب فإن جسمه ونفسه وعقله كل حين صحيحة .

**الحادي عشر: في احتداد المرة**

فأما المضبوط باحتداد المرة والساخط سريعاً من لا شئ فيسمع الرسول بولس القديس يقول : إن غضب الإنسان لا يعمل عدل اللـه . فبالحقيقة إنه شقي ومنكود الحظ المنغلب لهذه الآلام لأن الساخط يقتل نفسه وبالحقيقة هو هكذا أنه يقتل ويهلك نفسه لأنه يتصرف دائماً في الاضطرابات ، مقفر من الهدوء ، غريب من السلامة ، عادم الصحة ، جسمه يذوب كل حين ، ونفسه مغمومة ، وبشرته ضئيلة ، ولونه لا نضارة له ، وذهنه يتغير ، وعقله يضعف بالمرض ، وأفكاره تنبع كنهر فائض ، وهو ممقوت من الكل ، خالٍ من طول الأناة والمحبة ، يقلق سريعاً من الأقوال الفارغة ، ومن أجل أمر حقير ينهض الخصومة ، وحيث لا يكون له حاجة يزج نفسه ويجمع لذاتهِ البغض ، يفرح بكثرة الأحاديث ، ويطفر من الأمور التي لا توافقه ، يستلذ بأنواع الثلب ، يضعف في الوداعة، شجاع في الأمور الخبيثة ، فمن لا ينوح عليه لأنه مرذول عند اللـه والناس لأن الحاد المرة يحصل في كل أمر رديئاً ، فلذلك يجب عليه أن يتوقى في احتداد المرة .

**الثاني عشر: في الوداعة**

مغبوط بالحقيقة ومثلث الغبطة الإنسان الحاوي الوداعة لأن الرب المخلص القدوس يضمن له قائلاً : مغبوطون الودعاء فإن لهم ملكوت السموات ، ويرثون الأرض . فماذا يكون أعظم من هذا التطويب؟ ماذا يكون أعلى من هذا الوعد ؟ ماذا يكون أبْهى من هذا السرور ؟ أن يرث إنسان أرض الفردوس . فلذلك يا أخوتي إذ قد سمعتم فضل سمو هذا الوعد وجسامة وقدر ثروته فبادرا أن تغايروه ، وسارعوا إلى بَهاء الفضيلة إذ قد سمعتم شرفها فتخشعوا واحرصوا بكافة قوتكم أن لا يحصل أحد غير وارث هذه الأرض فيبكي بكاءً مراً متندماً تندماً لا ينفع ، إذ قد سمعتم تطويب الوداعة فبادروا إليها ، أسمعتم ما قال عنها إشعياء النبي الصادق بالروح القدس : إلى من أنظر قال الرب إلا إلى الوديع الهادئ المرتعد من أقوالي . أترى لا يجب أن نتعجب من هذا الوعد ، لأنه ماذا يكون أشرف من هذه الكرامة ؟ فاحذروا يا أخوتي أن يسقط أحدكم من هذا التطويب ومن الفرح والابتهاج الذي لا يحصى ، أتضرع إليكم أن تبادروا متسارعين لتقتنوا الوداعة فإن الوديع تزين بكل عمل صالح . الوديع إن سُبَ فرح ، إن حزن شكر ، يُسَكن غيظ الساخطين بالمحبة ، يلبث متأدباً هادئاً في الخصومة ، يبتهج في الأسهار ، لا ينقطع في الكبرياء ، يفرح بالتواضع ، لا يستعلي ذهنه بتقويماته ، لا يتحير ، يستعمل السكوت لدى الكل ، يتعبد في كل طاعة ، مستعد لكل عمل نجيب ، في كل شئ ممدوح من الجماعة ، خالٍ من الرياء ، ومبتعد من الخبث ، لا يتعبد للغش ، ولا يخضع للحسد ، يمقت اللائمين ، ويعرض عن المغتابين ، إن شرف الوداعة المغبوطة تشرف الكل .

**الثالث عشر: في الخبث**

يجب يا أخوتي أن ننتحب وننوح على من لا وداعة فيهم المقترنين بالخبث إن القضية الصارمة مستعدة لهم لأن الخبثاء يستأصلون ، وقد وبخ إلهنا القدوس هؤلاء قائلاً : الإنسان الخبيث من كنزه الخبيث يبدي الخبث . والنبي أيضاً يقول : تسمع أذني بمصاب الأشرار المنتصبين عليَّ . لأن شيطان الخبث صعب يا أخوتي .

فلذلك احذروا أن يسقط أحدكم في هذا الألم فيذم نفسه ، لأن الخبيث لا يسالم أحداً قط بل كل وقت في الاضطراب ، في كل ساعة يستوعب غضباً وغشاً وسخطاً ، كل وقت يبصر جيرانه من تحت ، كل حين يتذمر يشارر يحسد يغاير يتقسى ينتهر دائماً ، ويجاوب ، يأمر ويرجع يشاور ويعمل السوء، يعاهد وينكث ، يحب ويتوقع ، يرفض النجباء ، يلوم الناجحين ، يعاكس الأخوة ، يشارر بثلب الودعاء ، يضحك علي المتهاملين ، يتظاهر للغرباء ، ينم بالواحد عند الآخر ، يضاد كل واحد من الأخوة ، يحرض الخصومة ، ينهض الغيظ ، يعاون في المجازاة بالشر ، معد للثلب ، يستلذ الإغتياب، ينقاد إلي السب، شجاع في اكثار الكلام ، نشيط في أن يجرح بكلامه ، ساعٍ أول في الشغب ، ضعيف في الترتيل ، منحل في الصوم ، لا قوة له في كل عمل صالح ، ولا فهم له في الأفعال الروحانية. فمثل هذا يستحق نوحاً كثيراً فلذلك أتضرع إليكم يا أخوتي أن تتحفظوا من الخبث.

**الرابع عشر: في الصدق**

الطوبى لمن تتصف سيرته بالصدق ولم يقتنص بشئ من الكذب ، مغبوط ومثلث الغبطة من صار فاعلاً للصدق ، فإن اللـه صادق وليس فيه كذب ، من ذا لا يطوب الحافظ الصدق لأنه قد شابه اللـه ، لأن الصادق هو دائماً يرضي اللـه حسناً وينفع كافة الناس، جميل في الأخوة ، مستقيم في كل أمر .

الصادق لا يحابي في الوجوه ولا يسر بِها ، ولا يحكم حكماً جائراً ، لا يقصد مرتبة أو كرامة ، ولا يغفل عن حقير ومحتاج ، في الرسائل هو بلا غش ، ومستقيم في العلم ، مهتم في العمل ، لا يعرف غشاً ولا يحب الرياء، مزين بكل عمل صالح ، مستنير بكل فضيلة ، مغبوط إذاً من يخدم الصدق دائماً .

**الخامس عشر: في الكذب**

شقي وردئ الحظ من يدوم في كل نوع من الكذب لأن من القديم المحال كاذب ، ومن يداوم علي الكذب فليست له دالة لأنه محتقر عند اللـه والناس ، من لا ينوح علي المتصرف في الكذب فإنه منفي من كل عمل وعلم ، يُنهض في الدير السخط والخصام ، وهو في اشتراك الأخوة كالصداء في الحديد لأن له قلباً جسوراً ، يسمع الأسرار بلذة ويشهرها بسهولة ، وبلسانه يعاكس الواقفين حسناً ، يبدي بالأمر ويتبرأ منه ، لا يتكلم قولاً بلا قسم ويظن أنه بإكثار كلامة يُصدق ، فالكذوب كثير الحيل وكثير الأحوال ، لا يوجد أعظم من هذا الجرح ضرراً ولا يكون عار أشهر منه لأنه مرفوض من الكل ، وضحكة عند الجماعة فلذلك أحذروا يا أخوتي مداومة الكذب .

**السادس عشر: في الطاعة**

مغبوط من أقتنى وملك الطاعة المحقة الفاقدة من الرياء فإنه يشابه معلمنا الصالح الذي صار مطواعاً إلي الموت ، فبالحقيقة مغبوط من فيه الطاعة فإنه يتحد بالكل بالمحبة ويضاهي الرب ويصبر نظيره في الموت ، من فيه الطاعة فقد أقتني قنية جليلة وملك ثروة جسيمة ، المطواع يرضي الكل وممدوح من الكل ، يشرف من الكافة .

المطواع يستعلي سريعاً ويحصل في صنوف النجاح وشيكاً ، المطيع يُنتهر فلا يجاوب ، يُؤمر فلا يرجع ، يُزجر فلا يسخط ، معد لكل عمل صالح ، لا ينحدر إلي احتداد الغضب بسهولة ، إن سمع كلاماً خارجاً لا ينزعج له ، وفي الشتائم لا يضطرم غضبة ، يسر بالأحزان ، يشكر في الغموم ، لا ينتقل من موضع إلي موضع ، ولا يستبدل ديراً بدير .

إذا وعظ لا يحرد ، يثبت في الموضع الذي دعي إليه ، لا يمسك بالضجر، لا يحتقر الأب ، ولا يستصغر الأخ ، لا ينحني للتطواف حول صقع الدير ، ولا يسر بالنياحات ، ولا يلتذ بالأماكن ، ولا يطرب بالأهوية بل كما يأمر الرسول القديس الموضع الذي دعي إليه يثبت فيه ، فثمار الطاعة كثيرة بالحقيقة فمغبوط من أقتناها .

**السابع عشر: في التذمر وعدم الخضوع**

شقي من لم يقتني الطاعة بل يقتني التذمر لأن التذمر في الدير ضربة عظيمة ، ويشك في المعاش المشترك ويسبب انعكاس المحبة واجتناب الألفة وتكدير السلامة ، المتذمر إذا أُمر يجاوب ، وفي الأعمال غير نافع ، خالٍ من النعمة وعاجز لأن الكسل مقترن بالتذمر ، فكل كسلان قد قال الكتاب الجليل عنه أنه يسقط في الأسواء ، الكسلان زعم إذا أرسل في حاجة يقول السبع في الطريق والقتلة في الشوارع ، المتذمر يخترع الحجج دائماً إن تقدم ليعمل عملاً يتذمر وفي الحال يسترجع آخرين قائلاً : إلي أين هذا ؟ ولم هذا وذاك ؟ وليست الحاجة موافقة هنا ، إن أُرسل في طريق يزعم أنه يحصل له فيها مضرة ، إن أقاموه إلي الترتيل يغضب ، إن أنْهضوه إلي السهر يحتج إن معدته ورأسه يوجعانه ، وإن وعظته يقول عظ نفسك والله يعمل فيَّ ما يريد ، إن علمته شيئاً يقول : يا ليتك عرفت كما عرفت أنا ، لا يعمل عملاً إن لم يجتذب معه آخر . كافة عمل التذمر ضار وغير نافع وكل فضيلة له غير منتظمة .

المتذمر يسر بالراحة ولا يطرب بالشقاء ، المتذمر يتلذذ بالموائد ويرفض الصوم ، المتذمر والكسلان يعرفان المشارة ويستنبطان أقوالاً ، المتذمر كثير الحيل ، وجزيل البدع ، وفي الأقوال الكثيرة لا يغلب ، يثلب واحداً عند الآخر ، المتذمر مقطب في بذل الإحسان ، وفي استقبال الغرباء غير مستعد، مرائي في المحبة ، شجاع في البغض . فلذلك يا أحبائي لا نتذمر في الخضوع، ولا نشاجر ، ولا نزكي قولنا ونبرهنه كأننا علماء .

**الثامن عشر: في من ليست فيه غيرة ولا حسد**

مغبوط من لم يخضع للحسد والغيرة لأن الغيرة والحسد أحدهما متعلق بالأخر ومن فيه أحدهما فهما كلاهما فيه ، فمغبوط بالحقيقة من لم يسقط فيهما ولم يخرج من أحدهما لأن من يغير من أخاه في الظلم يدان مع المحال ، من يحسد فهو مغلوب وفيه البغض والعداوة ، يحزن بنجاح آخرين ، أما من لا غيرة فيه ولا حسد فلا يغتم بنجاح آخرين ، إذا أكرم آخر لا يضطرب وإذا رفع شأن آخر لا يكتئب لأنه يحتسب الجماعة مقدمين عليه ، يقدم إكرام الكافة علي ذاته ، يحتسب ذاته غير مستحق وأخر الكل ، يشعر أن الجماعة أعظم منه وأفضل منه ، من لا حسد فيه لا يطلب إكراماً ، يفرح مع المسرورين ، لا ينسب لنفسه فخراً ألبته ، يعاون الناجحين ، يبتهج بالسالكين حسناً ، ويمدح السائرين سيرة مستقيمة ، إن أبصر أخاً يقوم فضيلة لا يعيقه بل يقويه بعظاته ، إن رأى آخر في نياح لا يثلبه بل يمدحه ، إن عاين آخر في غلطات لا يشجبه بل يردعه باستقامة ، إن أبصر أخاً مغتاظاً لا يحنق عليه بل يحبه ويهدئ روعه ويماشيه في السلامة ، إن أبصر مغموماً لا يغفل عنه بل يتوجع معه ويسليه بأقوال المنفعة ، إن رأى إنساناً أمياً لم يتعلم يحرص أن يعلمه ويرشده إلى ما يوافقه ، إن أبصر غبياً يرشده بلا حسد إلى الأمر الفاضل ، إن أبصر نائماً يبقظه بحرص ، ثم أني أقول قولاً وجيزاً إن من لا حسد فيه والمقفر من الغيرة لا يكأد ولا يأمر أحداً بل يفرح بكافة نجاح رفيقه وشهامته .

**التاسع عشر: في من فيه الحسد والغيرة**

أما المنجرح من الحسد والغيرة فذاك شقي لأنه شريك المحال الذي دخل به الموت إلي العالم لأن من فيه الحسد والغيرة هو معاند الكل لا يؤثر أن يفضل عليه أحد يستصغر النجباء ويضع معاثر للسالكين حسناً يذم السائرين سيرة مستقيمة ويرفض الحسن المنطق ، يدعو الصائم معجباً ، والحريص في الترتيل يسميه محب إشهار ذاته ، والمبادر في الخدمة يدعوه شرهاً ، والناهض في الأعمال محب التباهي ، والمحب التعب في الكتب غير عامل ، والنجيب في الترتيل ماكراً . الحسود لا يفرح بنجاح رفيقه ، إن رآه متوانياً لا ينهضه بل يحضه علي الشر أكثر ، إن أبصر نائماً في أوان الصلاة لا يبقظه بل يزيده سكوتاً ، إن أبصر أخاً مرتاحاً يثلبه ، إن أبصره في هفوات يشجبه لدى الكل ، ترحاً للحسود لأن قلبه كل حين مريضاً بالغموم ولون وجهه يبيد وقوته تفنى وهو باغض الكل وعدو الكافة يرائي الكل ويخترع الغش يحابي بالوجوه اليوم يعاهد هذا وغداً آخر ويتغير نحو الكل ، وينتقل

بحسب مسير كل أحد وبعد قليل يذم الجميع ويستجر هذا إلي هذا ويقيد كل واحد بالآخر ، الحسد والغيرة هما سم ردئ لأن الوقيعة والبغض والقتل تتولد منهما ، اهربوا من الحسد بعيداً يا جنود السيرة السمائية انبذوا منكم الحسد والغيرة لئلا تدانوا مع المحال .

**العشرون: في من لم يقرف**

مغبوط ومثلث الغبطة من لم يعود لسانه علي أن يقرف أحداً ولم يدنس قلبه بلسانه بل يتفهم أننا كلنا تحت الخطأ ومغبوط من لم يستلذ بتقريف أحداً بل يستكره هذا الألم لأن من لم يقرف رفيقه فقد حفظ ذاته بلا عيب ، من لم يكن عثرة لآخرين لا يتدنس ضميره، من يهرب من روح التقريف فقد حفظ نفسه من الأسواء وغلب مواكب الشياطين ، من لم يقتنِ لساناً مقرفاً فقد أقتنى كنزاً لا يسلب ، من لم ينحنِ إلى تقريف أحداً فقد هرب من قتل الأخ ولا يُقرَف من أحد ، من يقتنص بروح التقريف فقد عرف ذاته أنه إنسان جسداني وحفظ ذاته غير مدنس ، من لم يكمن مع المقرفين يستوطن مع الملائكة، من لم يدنس مسامعه ولسانه بالقرف فهو مستوعب من ترياق المحبة وملآن فمه بأثمار الروح القدس ، فمغبوط بالحقيقة وسعيد من حفظ ذاته من القرفة .

**الحادي والعشرون: في الثالبين**

من أعتاد وأستلذ أن يقرف آخرين فهو معلوم أنه صيد بالمثالب التي يقرف بِها لأن من يقرف رفيقه إنما يدين نفسه وهو جسداني متعلق بشباك العالم الثالب له ، خلتان وهما الوقيعة والبغض فهذا يدان كقاتل الناس وفاقد التحنن وعادم الرحمة وأما من له مخافة اللـه فقلبه نقي لا يسر أن يقرف أحداً ولا يتلذذ بالخفيات الأجنبية ولا يفرح بسقطة أحد فمستحق النوح بالحقيقة والانتحاب من عود نفسه علي الثلب ، لأن الرسول بولس أحصاه مع الخطاة لما عد أعمال الفحشاء قائلاً : لا قارفون ولا متغطرسون يرثون ملك اللـه .

**الثاني والعشرون: في الحمية والمسك**

مغبوط ومثلث الغبطة من حفظ المسك ، فضيلة عظيمة قدرها لكن أسمعوا يا أخوتي إلي أي مقدار وإلي كم نوع يقال المسك ،

(١) **فالمسك باللسان:** أن من يمسك عن الأقوال الكثيرة الفارغة والقرف والسب واللعن والكلام الباطل يمسك اللسان أن لا يغلب أحداً ولا يذم أخاه ولا يظهر الأسرار ولا يدرس فيما لا يخصه .

(٢) **والمسك في الأذن:** أن لا يلعن أحداً من سماع باطل .

(٣) **والمسك في العينين:** أن تغض ناظرهما ولا تتفرس في الأشياء المطربة وما لا ينبغي أن ينظر.

(٤) **ومسك الغضب:** أن يمسك غضبه ولا يضطرم سريعاً .

(٥) **ومسك الشرف:** أن يمسك معقولاته ولا يؤثر أن يشرف ويمجد ويستعلي بذهنه ولا يبتغي إكراماً أو يتشامخ أو يتخيل المدائح .

(٦) **والمسك في الأفكار:** أن يعذبْها بمخافة اللـه ألا يتنازل أو يتلذذ بفكر خادع ملتهب .

(٧) **والمسك في الأطعمة:** أن يحتمي منها ولا يلتمس أغذية تزيد عن قيام الجسد وألواناً كثيرة أثمانِها ويمسك ألا يأكل قبل أوان الغذاء أو قبل أوان ساعته ولا يتعبد لروح شره البطن وألا يتملى من أفاخر الأطعمة ، ولا يشتهي طعاماً آخر ولوناً آخر .

(٨) **والمسك في الشرب:** أن يحتمي منه ولا يسقط في شرب النبيذ أو في التلذذ بالخمر ألا يشربه بغير مقدار ، ألا يطلب أفضل الشراب وألذ الممزوجات المصنعة ، ألا يستعمل الشراب بلا مقدار لا في الخمر فقط بل وإن كان ممكناً في الماء .

(٩) **والمسك في الشهوة واللذة الخبيثة:** أن يمسك الحس لئلا يسقط في الشهوات العارضة وأن لا يتنازل للأفكار التي تخطر باللذة لئلا يتلذذ كأنه فاعل للفاحشة التي تستحق الغضب ، ألا يصنع مشيئة الجسد بل يلجمه بتقوى اللـه لأن الماسك الحقيقي يشتهي الخيرات التي لا تفنى، يتفرس فيها بعقله فهذه ترد الشهوة وترفض المجامعة كمرذولة، لا يفرح بوجوه الإناث ولا يطرب بالأجسام ، ولا

يسقط في الجمال ، لا يتلذذ بالفخر لا ينخدع بالتمليق ، ولا يداوم التصرف مع الإناث ولا سيما المدنسات أو يتحدث معهن ، الممسك الحقيقي والشجاع يصون ذاته ، ولأجل تلك الراحة التي لا مقدار لها يمسك كل فكر يضبط كل شهوة باشتهاء الأفضل تائقاً إلي الدهر العتيد .

**الثالث والعشرون: في الإسراف أي عدم الاعتدال**

فأما من لا مسك له والغير ماسك فيضبط بسهولة بكل فاحشة ، الغير ممسك هو محب للذة ، الغير ماسك يلتذ بالأقوال الفارغة الكثيرة ، يطرب بالأحاديث الباطلة ، وأنواع المزاح والخلاعة ، يتباهى بلذة الأطعمة ، يتشجع بكثرة الأكل وبوفور الشراب ، يتحرق باللذة الباطلة يتنازل للأفكار باللذة مشتهياً الشرف متصوراً أنه حصل علي الكرامة ، يتباهى بأحاديث النساء ، يسقط في اشتهاء الجماعات ، لا يرفض الألوان ، يبتهج بالوجوه ، يسخر باصطناع المعروف ، يذوب في حديث النساء المضحك ، يتخيل سحنات الوجوه ، يكرر تصوير وجوه النساء في ذهنه وتفتيش الأجسام ومعانقة الأعضاء ، والأقوال الهزلية ، والأضاحيك الخادعة ، غمزات العيون ، لبس الثياب ، ألوان الأجسام ، التملق ، تلذذ الجسم ، تخيلات حركات المشي ، ساعات وأوقات الأحاديث وكافة الأشياء التي تجذبه إلى اللذة ، الغير ماسك يعيد تصويرها في ذهنه ويجيلها في أفكاره ، إن سمع كتاباً مقروءاً عن العفة يقطب ، إن أبصر مجمع آباء نافعاً يجنح عنهم ويرفضهم ، إن أبصر صرامة الآباء يكتئب، إن سمع عن الصوم يحزن ، لا يطرب بعصابة الأخوة ، إن أبصر امرأة يتهلل وجهه ويحاضر في الخدمة فوقاً واسفلاً ويوجد حينئذ في الترتيل قوياً مقتدراً علي المزاح والخلاعة متفنناً في الضحك يوضح ذاته للنساء الحاضرات ، بَهياً ومطرباً يوجد ، في أنواع السكوت مقطباً ومريضاً، فشقي ومنكود الحظ من لا مسك له في كل نوع وأمر . فلذلك يا أخوتي إذ قد سمعتم وصف أثمار المسك وأغمار الإهمال وعدم المسك فلنهرب منه ولنلاصق المسك فإن عطية جزاء المسك عظيمة وليست لجسامتها غاية ، فمغبوط بالحقيقة المقتني المسك ، وسعيد من يثقف ذاته بكل فضيلة ويحرص أن يشرق في أعمال العدل ، ومغبوط من لم يعمل شراً ما لا يرضي اللـه بل يخدمه بكل صدق فتصير كافة أعماله في النور ولم يغلب بكل فكر ليشير مشورات باطلة ، فماذا أصنع أنا المادح كل فضيلة ولم أسير بواحدة منها وأفنيت حياتي بكافة الشرور فسيتم فيَّ المكتوب " أنكم تحملون الناس أحمالاً ثقيلة ولا تحركونَها بإحدى أصابعكم " .

فلهذا أتضرع إلي محبتكم كلكم يا مباركي المسيح ومشاركي الفردوس أن تحرصوا وتسترضوا المسيح الذي دونكم في جنديته ، وأن لا يطرح أحدكم كمن تَهاون أو رقد . يا كافة الذين تحت نير اللـه احذروا أن تعملوا مشيئات الجسد لكي لا نوجد بلا اعتذار أمام ذلك المنبر الرهيب ، والحاكم الذي يجاذي كل أحد إن كان عمل شيئاً صالحاً أو طالحاً ، الويل لي في ذلك الوقت فإنني عتيد أن أقف بلا دالة ، فماذا أعمل في تلك الساعة بالشدة التي لا مناص منها ، فمغبوطون حينئذ كافة الذين يمثلون أمام الحاكم بدالة الذين يزمعون أن يأخذوا من يد الرب الجزاء الأقدس ، الويل وقتئذ للمسترخين من أجل أمر حقير مثل ما أقول : أي اعتذار لمن يشتكي من أجل أثرة التشرف والمباهاة ، أو من أجل التعظم ، أو من أجل المعصية ، أو من أجل عدم الخضوع ، أو من شره البطن ، أو من أجل التهجم ، أو من أجل اكثار الكلام ، أو من أجل التكبر ، أو من أجل التأمر ، أو من أجل التيه ، أو من أجل الحسد ، ، أو من أجل المحك ، أو الغضب ، أو من أجل القرف ، أو البغي ، أي اعتذار للمزمع أن يشتكي من مثل هذه الفظائع ، أية فائدة أم أية لذة تصير لك من هذه وأي ثقل ينالك من التحفظ منها جيداً فلذلك أتضرع إليكم يا أخوتي ألا يدان أحدكم بِهذه ، أني أعلم أنكم ممتنعون عن الخطايا الثقيلة سوى الخفيفة التي يجتهد المحال أن يجعل كل واحد منا يستحقر هذه كأنْها ليست شيئاً لكن احرصوا أن ترتبطوا بِهذه بل احفظوا أنفسكم بكل أحتراص لتشرفوا مع المسيح . لأن له المجد إلي أباد الدهور وعلي تلميذكم الحقير رحمته بصلواتكم . آمين